مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص 345/ 355

الأصولية النحوية "لسيبويه" قراءة معاصرة لنحو سيبويه عند "إدريس مقبول" من خلال كتابه سيبويه معتزليا حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي.

Grammatical Fundamentalism of "Sibawayh": A Contemporary Reading of Sibawayh's Syntax by "Driss MAKBOUL" through his book entitled “Sibawayh according to al-Mu'tazilah: Diggings in the metaphysics of Arabic Grammar”

نوال منديل *
جامعة محمد بوضياف المسيلة (الجزائر)
naouel.mendil@univ-msila.dz

هدية جيلي
جامعة محمد بوقرة بومرداس (الجزائر)
Zellagui28@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022 /11/22
تاريخ القبول:
2023/05/18

الكلمات المفتاحية:
- ✓ القراءة المعاصرة.
- ✓ سيبويه.
- ✓ النحو العربي.

الملخص:

تعد الإبداعات النحوية العربية مجموعات كلامية لا يمكن فهم طبيعتها إلا بعد ربطها ببنية الذهنية العربية، وتحديد مكانها في تاريخ العلوم الإسلامية لذلك كانت مسألة الصلة بين علم الكلام وعلوم اللغة والنظر النحوي على وجه الخصوص في تراثنا العربي الإسلامي متينة ومتجذرة، وهذا ما ذهب إليه المؤلف المغربي "إدريس مقبول" في كتابه "سيبويه معتزليا" حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي وهو كتاب استقصى فيه الجمع والمقارنة والاستنتاج المعتزلي في مدونة سيبويه (الكتاب)، وكيف انبنى النظر النحوي عند سيبويه على الأصول الكلامية للفكر المعتزلي.

Article info

Received *22/11/2022*
Accepted *18/05/2023*

Abstract :

. The Arabic grammatical writings represent groups whose nature can only be understood after linking them to the structure of the Arab mind, and determining their in the history of the Islamic community. Therefore, the issue of the link

* المؤلف المرسل

between speech science, linguistics, and grammatical consideration in particular in our 1Arab-Islamic heritage was solid and rooted, and this is what the Moroccan author "Driss MAKBOUL" said in his book entitled "Sibawayh according to al-Mu'tazilah: Diggings in the metaphysics of Arabic Grammar". The book in which he investigated the collection, comparison, and isolated conclusion in the Sibawayh's blog (the book), and how the grammatical consideration of Sibawayh was based on the verbal origins of the Mu'tazilah's

Keywords:
- ✓ *Contemporary Reading*
- ✓ *Sibawayh's*
- ✓ *Arabic Grammar*

1. تمهيد:

تزخر الكتابات النحوية العربية المعاصرة بالدراسة والنقد خاصة ما تعلق بقضية التأثير الكلامي في النحو العربي والبرهنة في إطار الكشف عن أصول الفكر النحوي أن علم اللغة لم ينفصل يوما عن العقيدة؛ ويعد كتاب "سيبويه معتزليا": حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي للباحث إدريس مقبول أول من عمد إلى إنشاء حفريات في المدونة النحوية ليسبويه << الكتاب >>.

ومن هنا فإن إعادة قراءة هذا الكتاب خطوة مهمة للفحص والكشف عن الأثر المعتزلي في أحد أنفس مدونة نحوية في تاريخ اللغويات العربية بحيث عرج إدريس مقبول أثناء بحثه على قضايا عدة أهمها قضايا التأويل النحوي للقراءات القرآنية وكذا اعتماد الفلسفة النحوية العربية على الفلسفة الإسلامية مستشهدا بأن من النحاة القدماء من صرح بأن << في أعماق اللغة وفي جوانب النحو فلسفة إسلامية خالصة، فكرة الزمان الماضي والحاضر والمستقبل ... وفكرة العلية والقياس العقلي النحوي، وفي إيجاز كل مقولات العقل الاسلامي إنما ينبغي أن تستمد في أعماق النحو واللغة وقد أشار ابن جني (ت 392هـ) قديما إلى أنه يعتزم عمل أصول في النحو على مذهب أصول الكلام والفقه.>>(ابن جني، ص1 - 2).

سنحاول في هذا البحث وصف وتتبع تجربة المؤلف في الفصل الأول والمعنون بالأصولية النحوية لنوضح كيف قدم ميتافيزيقا أبواب النحو الرئيسية عند سيبويه وكيف تأثر هذا النحو بفلسفة علم الكلام.

2. قراءة في كتاب سيبويه معتزليا

صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، عام 2015، كتاب (سيبويه معتزليا، حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي)، للباحث المغربي "إدريس مقبول" المولود في مدينة فاس عام 1975، حاز الدكتوراه في اللسانيات من جامعة محمد بن عبد الله بفاس، عمل في حقل التدريس، ونشر مجموعة من الكتب منها: "الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه" الصادر سنة (2007)، ومنهج سيبويه في الاحتجاج بالقراءات الصادر سنة (2010)، وكتاب سؤال المعنى في فكر عبد السلام ياسين الصادر عام (2014). وهو عضو في الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين ومدير مركز ابن غازي للدراسات والأبحاث الاستراتيجية، أستاذ اللغويات وتحليل الخطاب في المركز الجهوي لمهن التربية في مدينة مكناس>> (مقبول، 2015، ص 306.)

والكتاب الذي بين أيدينا مطبوع من القطع المتوسط، وحجم الورق العادي أشكال (24 سم)، وذو مجلد واحد، احتوى الكتاب على أربعة فصول، يسبقها إهداء ومحتويات الكتاب وقائمة الأشكال يتبعها بمقدمة يليها بخلاصات واستنتاجات وبيبليوغرافيا عامة ومتنوعة موزعة على (303) صفحة.

وحسبنا أن نشير في عرضنا لهذا الكتاب إلى محتوياته وما زخر به هذا المنتوج العلمي من مفردات وقضايا تتعلق بالنحو العربي لسيبويه.

بداية عند الولوج عبر بوابة الكتاب في مقدمة نجد فيها أن الدكتور "إدريس مقبول" يذكرنا بما ذهب إليه اللساني الفرنسي "جورج مونان" حين قال في أحد أعماله: << أن قضايا اللغة المقدس كانت تاريخيا ملابسة لقضايا المعتقد في الحضارات كلها التي عرفت بكتاب سماوي>>(مقبول: 2015، ص 13) <<وليست هذه العبارات الافتتاحية التي يعتمدها

الدكتور مقبول سوى فضاء إيماني مقدس، ولما كان ذلك الفضاء المقدس هو المشترك العام للجدل اللاهوتي العربي حول اللغة وأصلها، في كل شعبه التاريخية، فإن المجال لم يفسح بعدُ عربيا، لتنزيل اللغة إلى مستوى الهم الدنيوي، ولا لتحرير اللغة ربطا بتحرير الإنسان نفسه>>(الأسعد: 2020، ص2.)

<< وبالعودة إلى القداسة التي تحكم علاقة النحو العربي باللاهوت وتصانيف علم الكلام الإسلامي*، لا نجد أن مقولة "مونان" المذكورة في هذه المقدمة تحتاج جهدا حتى تثبت، فهي قائمة اليوم بحذافيرها منذ أن باد المعتزلة*، ذلك التيار الذي يوصف بأنه الأكثر عقلانية وحرية لفاعلية الإنسان في التاريخ ونقضا لمقولات الجبر التي سادت مع تصورات الأعداء إلى أن يحضر الأعداء الأشاعرة والحنابلة>> (الأسعد: 2020، ص2).

وقد لخص "إدريس مقبول" في كتاب آخر عنونه "بالأسس الابستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه" صورة هذا الاتصال من النظر النحوي وعلم الكلام في ثلاثة أمور أساسية هي: (مقبول: 2006، ص 57-58).

1.2. **علم الكلام**: ويعد عند الكثيرين كما رأينا منطلقا للعلوم (العلم الأول أو الفلسفة الأولى) فهو خلاصة فلسفة المسلمين وعصارة نظرهم في دفاعهم عن عقيدتهم، ومن هنا كان أصلا يرتكز عليه العلماء في البحث والدراسة والاستدلال والتعليل.

2.2. **مسألة كلام الله تعالى:** التي تعد أهم مسائل علم الكلام الخلافية، مسألة دينية (عقدية)، وأيضا لغوية فهي دينية لأنها جزء من مسألة الصفات الإلهية وباب من أبواب التوحيد، وهي لغوية لأن كلام الله إنما يتجلى للبشر في صورة عبارة لغوية مركبة من ألفاظ بشرية.

3.2. من أهم الروابط التي مكنت الاتصال بين علم الكلام وعلوم اللغة عموما والنظر النحوي خصوصا ما تميز به تاريخ المعرفة العربية الإسلامية من مشاركة وتداخل بين فروع المعرفة.

ثم يشرح المؤلف في الصفحات الأولى من الكتاب "سيبويه معتزليا - حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي - غايته من الكتاب وموضوعه فيقول: << انتقلنا إلى بيان مرادنا من هذا الكتاب، ألا وهو فحص الأثر المعتزلي في أحد أنفس النصوص اللغوية التي وصلتنا في ثقافتنا العربية والإسلامية، لاعتقادنا أن الطابع العقلاني للفكر الاعتزالي كان وراء انتاج هذه القطعة النفسية من قطع التراث اللساني العربي.>>(مقبول: ، 2006، ص 15) << هذا العمل إذا عبارة عن حفريات في أول مدونة نحوية في تاريخ اللغويات العربية، عمل يتوخى الكشف عما يسميه أحمد العلوي المقدمات السرية للمعرفة عموما والمعرفة النحوية على وجه الخصوص، ونعتقد أن نص كتاب سيبويه الموسوم "الكتاب" بما تضمنه من هندسة معرفية غاية في الدقة والنظام الذي لا يكشفه الظاهر، وإنما يحتاج إلى تنقيب في أغواره... يعكس نموذجا إدراكيا عقلانيا واعتقاديا ندعي في عملنا هذا أنه لا يمكن أن يصدر إلا عن ثقافة معتزلية>>(مقبول، 2006، ص 15-16)

ففي هذا العمل اجتهد الكاتب في إثبات أن علم النحو الذي ظهر مكتملا في كتاب سيبويه ولد من رحم علم الكلام المعتزلي وقاده هذا المسار إلى قضايا التأويل النحوي للقراءات القرآنية وإلى الرد على تيارات الاستشراق التي لا ترى في العرب أهلية وقدرة لإنتاج أي نص أو نظر فلسفي وترد كل ذلك إلى أصول أجنبية غير عربية.

ولأجل ذلك وزعت محتويات الكتاب إلى أربعة فصول على النحو الآتي: (مقبول، 2006، ص 7)

- الفصل الأول: الأصولية النحوية.
- الفصل الثاني: المذهب الكلامي لسيبويه (إشكال الانتماء).
- الفصل الثالث: المذهب الكلامي لسيبويه (جدلية الأسلوب).
- الفصل الرابع: تجليات العقائد في النظر النحوي عند سيبويه.

ومن هذا المنطلق طرح أنس الأسعد سؤالا مفاده <<هل من المسموح أن يكون سيبويه معتزليا؟ وما التبعات التي ستلحق بإمام النحاة أو بمن يصنفه اليوم على ملة الاعتزال؟ على ما حازته تلك الفرقة من تشنيع وتحامل مع قبل التيارات الأخرى، فسيبويه في نهاية الأمر يبني الكتاب على الكتاب، الكتاب الأول وهو قرآن النحو والكتاب الثاني هو قرآن الدين، وهل المس بالأول مس بالثاني>> (الأسعد، ص 180).

وللإجابة عن هذا التساؤل وكذا إفحام المستشرقين الذين قالوا أن الفلسفة اليونانية مرجع النحو العربي؛ وضع المؤلف فصلا خاصا وكاملا عنونه (بالأصولية النحوية)، مناقشا فيه مختلف المسائل والقضايا التي قدمت في ذات السياق ومقسما لها إلى ثلاث هي:

3. الابستمولوجيا المفصولة:

وهي التي ترى أن النحو العربي مدين للفلسفة اليونانية في نشأته وبنائه ورائد هذا الادعاء هو المستشرق (أ مركس **Merx**)* في نهاية القرن التاسع عشر << ذلك أنه ذكر في كتابه (تاريخ صناعة النحو السرياني) أن النحو العربي اقتبس من المنطق اليوناني مجموعة من المصطلحات وزعم أن مفهوم سيبويه للحرف يشبه ما جاء في كلام أرسطو عن الرباط>> (محمد خير الحلواني، 1980، ص 19) << ثم ما أنفك جل من تحدثوا عن النحو العربي يرددون هذه الآراء، ولا يكاد الشك يخامرهم في سدادها ولا في تصويرها لحقيقة معطيات النحو>>(المهيري، 1973، ص 21).

ومن هؤلاء إبراهيم مذكور في مقال له معنون: << بمنطق أرسطو والنحو العربي>> وإبراهيم أنيس في كتابه من أسرار اللغة، حيث قال: << قنع اللغويون القدماء بذلك التقسيم الثلاثي من اسم وفعل وحرف متبعين في هذا ما جرى عليه فلاسفة اليونان وأهل المنطق من جعل أجزاء الكلام ثلاثة سموها: الاسم والكلمة والأداة.>>(الأنيس، 1966، 1966، ص 263).

وقال أمين الخولي في كتابه مناهج تجديد النحو والبلاغة والتفسير << ... والفلسفة العربية، أو بعبارة أدق فيما نريده، الفلسفة الإسلامية إنما هي - كما نعرف - بناء أجنبي الدعامة، أجنبي المادة إلى حد ما، أسس بعد العناية بالترجمة والاطلاع على ثمار العقول في الحضارات التي سبقت المدنية الإسلامية ولا سيما الحضارة الإغريقية>>(الخولي، 2003، ص110.)

وحجة هذه الدعوى القائلة بتأثر النحو العربي بالفلسفة اليونانية كانت الترجمة التي ازدهرت في القرن الثاني الهجري، غير أن المؤلف يرد على هذا الرأي يؤكد << أن انتقال التقسيم الارسطي لأجزاء الكلام إلى نحاتنا خصوصا سيبويه، لم يكن واقعا إلا بعد وفاة إمام النحاة الأمر الذي لم يسمح بالاتصال وجعل المستشرق "مايكل كارتر" يعلن الأطروحة من الصعب أن يستدل بها>>(مقبول، 2015، ص 25.)

أما في الاعتقاد الثاني في (الابستمولوجيا المفصولة) فيرجع بالنحو العربي إلى المنطق اليوناني يقول إبراهيم أنيس في كتابه من أسرار اللغة: << ... وأعجب المفكرون في الأمم الأخرى بمنطق أرسطو وحاولوا صب لغاتهم في تلك القوالب موفقين في هذا تارة وبعيدين عن التوفيق تارة أخرى... لذلك لا نعجب حين نرى اللغويين القدماء من العرب قد سلكوا هذا المسلك من الربط بين اللغة والمنطق والأرسطوطاليسي>>(أنيس، 1966، ص 119.)

وفي السياق ذاته قال أمين الخولي: << كل هذه الأبحاث وأسبابها كانت بين يدي القوم، فيما يتدارسونه باسم المنطق في آخر القرن الثاني الهجري، وهذا كافي وحده دون تعليق ما لبيان تأثير هذا المنطق في البلاغة ونشأة فنونها>> (الخولي، 2003، ص 118)

غير أن الدكتور مقبول يفند هذا ويؤكد أن ظهور الملامح المنطقية في النحو العربي لم يكن قبل القرن الرابع الهجري، أي بعد سيبويه بقرون، ولو افترضنا بتأثر العلوم العربية والإسلامية بالمنطق اليوناني يقول مقبول فإن جهودا مقاومة مستمرة

وحريصة على تباين الفروق بين النحو اليوناني والنحو العربي كانت قائمة وكتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي أكبر دليل على ذلك.

ولا ترجع الابستمولوجيا المفصولة كما يسميها الدكتور مقبول النحو العربي إلى الفلسفة والمنطق اليوناني فحسب، بل أيضا إلى الفلكية البابلية وهو رأي تبناه وطرحه أحمد العلوي؛ وقال "مقبول" في هذا << هي واحدة من الاجتهادات العجيبة والدقيقة لمولاي أحمد العلوي التي تستحق أن نعرج إليها حيث يرى أن النحوي قاس نظام الكائنات اللغوية على نظام المخلوقات الطبيعية، لاعتقاده أن الحكمة الإلهية المتجلية في الطبيعة من طينة الحكمة الإلهية المتجلية في اللغة>> (مقبول، 2015، ص 30)

وهو طرح باطل وينفيه مقبول ولا يرجحه من ناحية النظر لبعد ما يبين العلمين ولطبيعة مصطلحات كل واحد منهما مع أن هذا كما يقول: << لا يمنع بحث المشاكلة بين مفهوم العمل عند النحاة وأرباب هذه الصنائع، إلا أنه بحث مبني في جوهره على مقايسة تتجاوز إطار التاريخ الذي يحكم العلاقة بين المعرفتين>>(مقبول، 2015، ص 32)

وبهذا يكون المؤلف قد استوفى ما قدمه من عقائد إبستمولوجية مفصولة ليبدأ الحديث عن ما سماه بالابستمولوجيا الموصولة وما يندرج تحتها من عناصر.

4. الابستمولوجيا الموصولة

مقابل المنحنى المفصول يأتي الاتجاه الثاني والموسوم بـ: الابستمولوجيا الموصولة وفيها يرى المؤلف أن النحو العربي استفاد من علوم عربية وإسلامية عدة، إذ يقول في ذلك: << أن النظر النحوي استفاد من علوم عربية واسلامية متنوعة؛ فأخذ عن بعضها آلياته وأدواته المنهجية في حين استأثر بأخذ فلسفته عن علم الكلام>> (مقبول، 2015، ص 32)

ومن هذه العلوم علم الفقه وأصوله << ومن الواضح تلك العلاقة القائمة بين أصول الفقه وبين علم الكلام، ذلك أن المعتزلة خصوصا الذين تأثر بهم سيبويه، كانوا رؤوسا في الكلام وأصول الفقه على السواء بل أن بعض الآراء يذهب إلى أنهم سبقوا الشافعي إلى الكلام في علم الأصول ووضع قواعده الكبرى>>(البان، 2021، ص 3)

ويمثل هذا قول محمد الجابري بأثر الرسالة للشافعي على الكتاب لسيبويه، <<فهذا أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل، يقول عن واصل بن عطاء سبق الشافعي، إنه أول من قال بأن الحق يعرف من وجوه أربعة: كتاب ناطق، وخبر مجمع عليه، وحجه عقل وإجماع...>> (البان، 2021، ص 33)

ويظهر تأثر سيبويه بالفقه من خلال أمثلة كثيرة مثبوتة في ثنايا الكتب، ومن ذلك ما ذكره المؤلف في قول سيبويه (في باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفة ولا مصادر لأنه حال يقع فيه الأمر فينتصب لأنه مفعول به) << وأما: بايعته يدا بيد، فليس فيه إلا النصب، لأنه لا يحسن أن تقول: بايعته ويد بيد، ولم يرد أن يخبر أنه بايعه ويده في يده، ولكنه أراد أن يقول: بايعته بالتعجيل ولا يبالي أقريبا كان أم بعيدا>> (سيبويه، 1982، ص 391)

كما أن النحاة ألفوا في أصول النحو على طريقة الفقهاء ومن ذلك كتاب الاقتراح للسيوطي وكتاب الإنصاف لابن الأنباري وكتاب الخصائص لابن جني...

أما الحديث فقد كان << مقدما عند الفقهاء والمفسرين والمحدثين (باتفاق) والمفسرين (لفظا ومعنى): فإنه عند النحات واللغويين مؤخرا بعد كلام العرب - في زمن الاحتجاج - وموضع خلاف كبير لأن ما روى ودوّن منه في زمن الاستقراء والتقعيد، انتقل أكثره بالمعنى واللفظ للرواة وأقله باللفظ، وتحسن الإشارة أولا إلى السنة (الحديث) في أصول الفقه قبل أصول النحو>> (مقران، 2011، ص145).

وكان لسيبويه علاقة خاصة بعلم الحديث وله موقف من المحدثين وليس من الحديث نفسه، فقد كان موقرا للعلوم النقلية. إذ قال إبراهيم السامرائي في هذا << أن النحاة لم يرفضوا هذه اللغة التي يولع في نقدها وضبطها والوصول بها إلى الكمال في الصحة والصواب، ولقد مر بنا أن الثقات من النقاد ومنهم الجاحظ قد أثنى على جماعة من أهل العلم من الموالي كالحسن البصري وعمرو بن فائد الأسواري وغيرهما، بحيث اطمئن النحاة أنفسهم إلى علمهم فصح عندهم الاعتماد عليهم كما صح الاعتماد على سيبويه مثلا وهو غير عربي>> (السامرائي، د ت، ص25 26 27)

ويظهر أثر الحديث في الكتاب من خلال ورود أحاديث نادرة على سبيل التمثيل لا الاستشهاد؛ سيقت تلميحا لا تصريحا ومحمولة في أحايين كثيرة على أنها من كلام العرب، لبيان وتقوية شواهد القرآن << وكذا استخدام بعض صيغ الأداء والتحمل المقتبسة من العلم الحديث، من خلال حديثه عن عدالة الراوي وخلوه من خوارم المروءة، وهو أمر شائع عند النحاة وعقد ابن جني في كتابه (الخصائص) بابا سماه (باب في صدق النقلة وثقة الرواة والحملة)>> (مقبول، 2015) ص 39).

قال فيه: <<هذا موضع من هذا الأمر لا يعرف صحته إلا من تصور أحوال السلف فيه، تصورهم ورآهم من الموفور والجلالة بأعيانهم واعتقد في هذا العلم الكريم ما يجب اعتقاده له، وعلم أنه لم يوفق لاختراعه وابتداء قوانينه وأوضاعه إلا البر عند الله سبحانه، الحظيظ بما نوه به وأعلى شأنه>> (ابن جني، د ت ص 313).

وهنا تحدث ابن الجني عن ضرورة تحري الأمانة والصدق والموضوعية أثناء النقل والاستشهاد

5. الابستمولوجيا المأصولة

تناول الباحث المغربي إدريس مقبول في الابستمولوجيا المأصولة مسألة تأثر علم النحو بعلم الكلام عند أول من صنف في النحو العربي وهو سيبويه، وسنعرض مقدماته في هذا الموضوع وحججه التي استعملها في ثبات تأثر عمل سيبويه النحوي بعلم الكلام ومباحثه، وقد جعل ذلك كله تحت عنوان الإبستمولوجيا المأصولة الذي يريد من خلاله أن يبين أن تأثر النحو العربي لم يكن من معطيات ثقافية خارجية وأنما حصل مما أنتجته الثقافة العربية الأصيلة في ذلك الزمن من مثل علم الكلام الذي هو علم أصيل لم يمتزج بمعارف أخرى من خارج الثقافة العربية في أيام النشأة خاصة.

يقول «مقبول» في بيان منطقية سبق علم الكلام على النحو كذا أصالة علم الكلام: "هي عندنا مأصولة لما سيأتي بيانه من مقدمات، إذ أنه عندما ظهر أن موضوع هذا العلم هو الوجود المطلق وكان الوجود أعم من كل موضوع وجب أن يكون هذا العلم أسبق العلوم وأقدمها، وإنما سائر مبادئ العلوم إنما تتبين فيه. ومعرفة ذي المبدأ متوقفة على المبدأ، ولهذا تقدم العلم بهذا الاعتبار على غيره من سائر العلوم" (ابن جني، د ت، ص 40)

وسبب كون علم الكلام أسبق العلوم كما يرى «مقبول» يكمن في كليته وشموله إذ أنه يبحث في مسألة أصل الوجود وما يتعلق بها فوجب أن تلحق كل العلوم بعلم الكلام إذ أنه يشملها جميعا فبحث الموجودات الجزئية لا بد وأن يشملها البحث الكلامي.

1.5. مقدمات إدريس مقبول حول علم الكلام والنحو

قبل أن يشرع «مقبول» في بيان أوجه التقابل بين علمي الكلام والنحو يضع مقدمات يرى أنها ضرورية لربط الصلة بين العلمين وبيان ما يجمعهما، وقد جعل المقدمة الأولى في **بيان موضوعات تمهيدية عن الكلام**، وتناول فيها مفهوم علم الكلام وحدوده ومواضعه العامة ومصادر استمداده وأصالة مباحثه، فيقول معرفا علم الكلام ومبينا حدوده: "موضوع الكلام عند الأقدمين ذات الله تعالى وصفاته، لأن المقصود الأصلي من علم الكلام معرفته تعالى وصفاته، ولما احتاجت مبادؤه إلى معرفة أحوال المُحدثات أدرج المتأخرون تلك المباحث في علم الكلام، ولئلا يحتاج أعلى العلوم الشرعية (يعني علم الكلام) إلى العلوم الحكمية (يعني الفلسفية) فجعلوا موضوعه الموجود من حيث هو موجود، لذا وجب الحكم عليه بالكلية لأن موضوعه موضوع كلي".(مقبول، 2015، ص40-41).

فواضح من هذا التعريف أن موضوع علم الكلام ابتداء موضوع ذا صلة بالعقيدة مضمونه البحث في ذات الله وصفاته من خلال البراهين العقلية التي تتطلب بدورها البحث في مسألة الوجود وما يتعلق بها أو يقابلها كمسألة العدم والمحدثات.. وكذلك بما يمكن أن يستدل عليها من براهين وقد حرص واضعوه أن يبقى نقيا من شوائب المعارف الأخرى مستغنيا عنها وأن يتسم بالكلية والشمول.

وتبعا لهذا الحرص على الأصالة والنقاء مع إدراك أوائل منظريه لحاجته إلى معارف أخرى حاولوا ضبط مصادر هذه المعارف وطبيعتها فهي إما عقلية أو نقلية يقول «مقبول» في ذلك: "ولما رأى المتأخرون حاجته إلى معرفة أحوال الأدلة وأحكام الأقيسة وتحاشوا أن يحتاج أعلى العلوم الشرعية إلى علم المنطق جعلوا موضوعه المعلوم من حيث أنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا ثم أنهم اشترطوا في علم الكلام أن تؤخذ العقيدة أولا من المصدرين الكتاب والسنة ثم تثبت بالبراهين العقلية" (مقبول، 2015، ص40).

وهذا الذي سبق يؤكده باحثون آخرون: "ونستطيع أن نقول إن علم الكلام هو علم يقصد منه إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية لأجل البرهنة عليها إثباتا لصحتها ودفع الشبه عنها، ويتضمن الرد والدفاع عن مسائل العقيدة بتلك الأدلة ولكن اختلط فيما بعد بالفلسفة" (البريدي، د ت، ص748-749).

فمسألة أصالة علم الكلام إذن وكون منطلقاته من البيئة العربية الخالصة ليست محل تشكيك عند أغلب الباحثين فأكثر "اتجاهات الدراسات الحديثة في الشرق والغرب قد تجاوزت هذه المرحلة –مرحلة التشكيك في أصالة علم الكلام- إلى تقرير أصالة هذا العلم وانبثاقه من مصادر إسلامية حقيقية أول الأمر" (الشافعي، 2001، ص47)

ومن المهم الإشارة إلى سبب نشأة علم الكلام ونفي أن تكون لأسباب ثقافية وعلمية خارجية فـ: "لم تكن نشأة علم الكلام في الإسلام لجدال غير المؤمنين ولم يكن الأسلوب الكلامي يتغيأ في نشأته ولا في تطوره دحض عقائد غير المسلمين كما قد يتوهمه بعض من يرى أصول الكلام في آثار المعتزلة التبشيرية بل الحق أن مبادئ علم الكلام كانت في مناقشات المسلمين فيما بينهم عندما جعلت سذاجة يقين العهد الأول تتلاشى مع التطور السياسي شيئا بعد شيء"(شميتكه، د ت، ص89).

أما المقدمة الثانية التي تناولها «مقبول» فهي **مرتبة علم الكلام في سلم العلوم والمعارف** والتي أراد من خلالها أن يبين منزلة علم الكلام وأهميته في التراث العربي بسبب أهمية مجال بحثه فقد قال فيه: "لما كانت العلو م والصناعات تتفاوت وكان عندهم وجه شرف العلم أو الصناعة لا يكون إلا بشرف موضوعها أو شرف غرضها أو بشدة الحاجة إليها جعل بعضهم مرتبة علم الكلام فوق كل مرتبة لأن موضوعه أعم الأمور وأعلاها وسموه العلم الأعلى" (مقبول، 2015، ص43)

ولكن هذه المسألة كما هو معروف ليست محل اتفاق، ففيما يرى بعض أوائل العلماء شرف علم الكلام ومنزلته وأهميته تصدى له آخرون بالرفض والإنكار خاصة أنه مرتبط بمسائل العقيدة التي يناقشها بما يكن مألوفا في عصر الإسلام الأول عند الصحابة والتابعين.

وينقل إدريس مقبول عن القائلين بأهمية هذا العلم وضرورته وكليته دون الرافضين فيقول: "زاد الغزالي أن علم الكلام هو المتكفل بإثبات مبادئ تلك العلوم كلها فهي جزئية إضافة إلى الكلام فالكلام هو العلم الأعلى في الرتبة ومنه النزول إلى هذه الجزئيات"(مقبول، 2015، ص46) وذلك ليبين الأهمية من خلال تبيين الكلية الخاصة بعلم الكلام وحاجة كل العلوم الجزئية إليه، وذلك ما أكده الغزالي في مستصفاه قائلا: " فكل عالم بعلم من العلوم الجزئية فإنه مقلد لا محالة في مبادئ علمه إلى أن يترقى إلى العلم الأعلى فيكون قد جاوز علمه إلى علم آخر وهو علم الكلام"(الغزالي، 2008، ص 7).

كما يبين باحثون آخرون في معرض الحديث عن أساليب المتكلمين في الإقناع توصل علماء الكلام الأوائل إلى إرساء أنماط من الحجاج غير القياس ويشيرون إلى النقل الذي يعد في أعلى مراتب الحجية، وأساليب أخرى: "وجدير بالذكر أن

متقدمي المتكلمين قد عرفوا أنماطا أخرى من الاستدلال لا تقوم على القياس فمن ذلك أن الباقلاني المتكلم الأشعري يقول بجواز الاستدلال بالنص (القرآن أو الحديث) ومنه السبر والتقسيم بحصر الأقسام المحتملة كلها ثم إفسادها جميعا إلا واحدا فيكون هو الصحيح"(شميتكه، د ت ص699).

ويستند «مقبول» إلى آراء كل من الفارابي وابن سينا في الاعتقاد أن كل العلوم الجزئية وليس النحو فقط ترجع إلى العلم الكلي وهو الكلام قائلا: "إرجاع العلوم كلها ومنها النحو كما نعتقد إلى الفلسفة الأولى أو ما يسمى علم الكلام هو ما نجده عند ابن سينا والفارابي"(مقبول، 2015، ص46)

. وإن كان الحكم في هذه المسألة على هذا النحو يحتاج إلى دراسات معمقة واستدلالات كافية تثبت بما لا يدع مجالا للشك هذه الفكرة.

ثم يقول مخصصا الكلام عن النحو في محاولة لجعله من العلوم الجزئية المحتاجة لعلم الكلام: "وبهذا المعنى يشترط في علم الكلام أن يبحث فيه عن مبادئ العلوم النظرية الجزئية مثل المنطق والعلم الطبيعي وعلم النحو أيضا.. إذا أدرجناه في زمرة العلوم النظرية الجزئية"(مقبول، 2015، ص47).

وإضافة إلى حجاج «مقبول» حول جزئية النحو وكلية الكلام يحاجج أيضا حول مسألة السبق فعلم الكلام سابق منطقا وعقلا والنحو لاحق فهو الآخذ: "وما قيل في هذا الباب عن امتناع استمداد البادئ ذاتيا لآجل الدور اللاحق منطقيا هو نفسه ما نعتقده في النظر النحوي إذ يحتاج كغيره في بناءه البرهاني إلى استمداد مادته في هذا الشق إلى علم الكلام وإذا تبينت مرتبة علم الكلام من النحو ومن سائر العلوم والمعارف حيث ظهر تقدمه من جهات عدة وكلها تفيد أن للمتقدم أمرا زائدا ليس للمتأخر وتجعل المتأخر محتاجا إلى المتقدم" (مقبول، 2015، ص47).

أما المقدمة الثالثة فقد جعلها «مقبول» **في بيان أوجه المشاكلة بين النحو والكلام** وهي أهم المقدمات حيث أراد من خلالها أن يستدل على أثر علم الكلام في النحو العربي خاصة عند سيبويه ورأى أن يستعمل المشاكلة والتقابل سبيلا لذلك فبقدر وجودهما في العلمين يثبت استمداد النحو من الكلام، وجعل ذلك من أهم أهدافه في البحث إذ يقول: "لما كان من أهدافنا في هذا البحث رد المقدمات النحوية إلى أصولها الكلامية بهدف كشف الصلة والنسبة بينهما وتحديد برهانية النحو التي تقتضي كما يقول طه عبد الرحمن لا علم إلا بالبرهان ولا برهان إلا بالانبناء على مقدمات ومبادئ ضرورية رأينا ضرورة بحث خطوط المشاكلة أو وجوهها" (مقبول،2015، ص47 – 48).

2.5 بيان إدريس مقبول لأوجه المشاكلة بين النحو والكلام

يشرع «مقبول» في بيان أوجه التقارب والتقابل بين علم النحو وعلم الكلام ويجعلها ثلاثة وجوه أولها **الصناعية**، يقول شارحا هذ الوجه: "وقيل أن المعلومات الحاصلة لصاحب هذه الملكة إما أن تحصل بالاستقراء كالنحو وصنائع الفصاحة والبديع، أو تحصل بالنظر والاستدلال كعلم الكلام. والواقع أن النحو وإن كان يقوم النظر فيه على التتبع والاستقراء فهو لا يقف عند هذا الحد بل يجاوزه إلى الاستدلال على الأقوال، وذهب بعضهم إلى اعتبار الأول صناعة والثاني علما لكن الزمخشري عكس ذلك في أول تفسيره فسمى المعاني والبيان علما والكلام صناعة" (مقبول، 2015، ص49).

يتضح من كلام «مقبول» –حتى وإن اختلف في تصنيف العلمين النحو والكلام بين النظرية والصناعية- أن النحو يشاكل علم الكلام من زاوية البحث النظري الاستدلالي حتى وإن صنفناه من العلوم الصناعية، ويبقى هذا القدر المشترك قائما بين العلمين مهما اختلف التصنيفات لهما. وهذا التشكل يؤشر حسب «مقبول» إلى تأثر النحو بعلم الكلام.

أما وجه المشاكلة الثاني فهو عند «مقبول» **النظرية**، يقول شارحا هذا الوجه من التشاكل: "المعارف على الإجمال إما أن تكون ضرورية أو نظرية، وحيث أن النظري من المعارف والعلوم مقابل للضروري، فإن الكلام والنحو من المعارف النظرية لقيامهما على النظر والبحث والاستدلال من جهة ولأن ما كانت سبيله هكذا فطبيعي تنوع الآراء فيه واختلاف المذاهب، في

حين أن الضروري هو العلم الذي يلزم المخلوق نفسه لزوما لا يجد عنه انفكاكا ويدخل في المحسوسات بالحواس الظاهرة والباطنة كعلم الانسان بلذته وألمه.. مظنة الخلاف هي العلوم النظرية وليست الضرورية"(مقبول، 2015، ص49).

يقتضي هذا الوجه تقسيم المعارف والعلوم إلى قسمين: أولهما العلوم الضرورية التي يمكن أن نقول عنها بلغة عصرنا أنها العلوم ذات الطابع المادي التي سمتها الأساسية الدقة والضبط فلا يحصل الاختلاف فيها غالبا، أما العلوم النظرية فهي العلوم الإنسانية بالمصطلح الحديث وسمتها الغالبة النسبية وكثرة الآراء والاختلافات حولها. وإذن يشاكل علم النحو علم الكلام في أن كليهما نظري مما يرجح عند «مقبول» تأثر النحو بالكلام من هذا الجانب.

أما الوجه الثالث فهو **الآلية**، ويقول «مقبول» حوله: "العلوم إما آلية أو غير آلية، لأنها إما أن لا تكون هي في ذاتها آلة لتحصيل شيء آخر بل مقصودة لذاتها أو تكون آلة له غير مقصودة في ذاتها. والوصف بالآلية بناء على اشتمالها على الآلة، فإن العلم الآلي هو ما كانت مسائله وقضاياه كلها أو بعضها على الأظهر مما يتوسل بها إلى فهم غيره أو بيانه والحجاج عنه، ومما يشترك فيه علم الكلام وعلم النحو كونهما آلة لغيرهما ويتوسل بهما معا في فهم كلام الباري سبحانه وتأويله"(مقبول، 2015، ص 51).

فالعلوم إما أن تكون غاية في حد ذاتها وإما أن تكون وسائل لبلوغ غايات أخرى أي آلات تستعمل لتحصيل معارف أخرى أو خدمتها ومتى اتصفت بهذا الوصف سميت علوما آلية، وواضح أن الآلية سمة ظاهرة في النحو فالمقصود منه خدمة النص القرآني وحمايته من اللحن والتحريف ووضع سبل الاستفادة منه، ولا يختلف الأمر بالنسبة لعلم الكلام الذي غايته خدمة العقيدة والمنافحة عنها باستخدام أساليب الحجاج العقلية وهذا وجه آخر مهم من أوجه المشاكلة بين العلمين.

والوجه الأخير من أوجه المشاكلة أن كلا العلمين يبحث **في الوجود الأنطولوجي** –على حد تعبير مقبول-، يقول في ذلك: "كما سلف بيانه، فإن النحو الذي يستمد فلسفته من الكلام هو أيضا بحث لا في مطلق الوجود بل في متعلقات الوجود اللغوي، كأن يذهب النحوي إلى تصور وجود عالم لغوي له أيضا أقسامه وحقائقه وصفاته، ويرجع سبب هذا التوجه إلى أن البحث في الوجود الأنطولوجي يتعلق بالمدركات، وهذا ما يفسر وجود عدد من المصطلحات في العلمين معا تدل على متعلقات الوجود مثل المكان والزمان والجوهر والعرض والجثة والذات والشيء والبدل... وإذا كان علم الكلام والنحو يجمعهما منطلق البحث والنظر في متعلقات الوجود، وجودا لغويا كان أم طبيعيا، تبنى النحاة كما فعل المتكلمون وسائل بحث ونظر في هذا الوجود تتفق في كلا المجالين وهي الجدل والمناظرة والتأويل والاحتجاج"(مقبول، 2015، ص 53).

فإذا كان علم الكلام يبحث في الوجود الكلي متوسلا عددا من طرق الاستدلال فإن النحو بالمقابل يبحث في وجود جزئي وهو علم الوجود اللغوي فملاهما إذن تشغله قضية الوجود إن بصورة كلية أو جزئية، هذا بالإضافة إلى أنهما يشتركان في طرق الاستدلال من جهة وفي معجمهما المصطلحي من جهة أخرى.

ويختم «مقبول» حديثه في هذا المبحث جاعلا تأثر علم النحو بعلم الكلام من قبيل الجواز لا الوجوب، وذلك في قوله: " ما ننتهي إليه في هذه المقدمة هو أنه متى جاز وجود تشاكل بين العلمين لم يمتنع قيام تداخل بينهما، ليس بالضرورة على أساس نقل العناصر من أحدهما إلى الآخر، وإنما على أساس مقايسة البنيات بعضها ببعض، فتتسع البنية في العلم الواحد منهما بالاسترشاد بما يقابلها في العلم الثاني"(مقبول، 2015، ص 54).

وبينما يكاد «مقبول» يقطع بتأثر علم النحو بعلم الكلام يفسر باحثون آخرون هذه الأوجه من التشاكل بين العلمين تفسيرا آخر "وقد نجد في كتاب سيبويه بعض الملامح الفلسفية كالموازنة بين الألفاظ والموجودات، والتوسع في التعليلات والأقيسة العقلية، والاحتكام إلى العقل في كثير من الأحكام النحوية ولكن **ليس معنى هذا أنه كان متأثرا بعلم الكلام أو**

الفلسفة فإن النظر العقلي والتعليل والقياس شركة بين جميع البشر، وسمة عند كل عالم مدقق منذ القدم فهذه المظاهر الفلسفية والعقلية التي نلحظها لدى سيبويه ليست إلا من قبيل الفلسفة الطبيعية الفطرية"(بخيت، 2012، ص34)

فهذا القدر المشترك من البحث العقلي الاستدلالي موجود في جميع العلوم وليس حكرا عل المتكلمين، بل واستفاد الخليل وتلاميذه حتى من حقل الرياضيات وذلك " باستغلاله –مثلا- لنظرية التباديل والتوافيق الرياضية في وضع علم العروض والمعجمية العربية" (بخيت، 2012، ص37)

"وقد ورث سيبويه هذه الفلسفة عن أستاذه الخليل وكثرت في كتابه التعليلات والأقيسة والخطرات الفلسفية لكنها أيضا لم تكن مستقاة من مصدر خارجين وإنما هي نابعة ن التعمق في أسرار اللغة وحكمتها فكان سيبويه يلتمس علله من مراعاة الأصل ودف اللبس ومراد حال المتكلم وحال المخاطب ونحو ذلك".(بخيت، 2012، ص37 - 38)

6. خاتمة:

مجمل القول في هذا الفصل أن الباحث المغربي إدريس مقبول كان بصدد محاولة إثبات تأثر سيبويه في نحوه بعلم الكلام، وليس بمنطق أرسطو أو الفلسفة اليونانية وذلك بأن ساق أوجها للمشاكلة بين العلمين ((النحو والكلام)) لإثبات ذلك، وسواء أصحت هذه الأوجه أم لم تصح فإنها لا تكفي للقول بتأثر علم النحو بعلم الكلام، والذي يرجحه عبد الرحمان الحاج صالح ويؤكده هو عدم تأثر كل نحو القرنين الهجريين الأول والثاني بعلم الكلام بصورة مؤكدة، إذ لم يحدث ذلك التأثر إلا خلال القرن الرابع يقول في ذلك:" إلا أن هذا النهج الذي سار عليه الخليل وأتباعه لم يسر عليه كل من جاء بعدهم، فقد تأثر النحاة في **القرن الثالث والقرن الرابع** بنوعين من الفلسفة، الأولى: هي علم الكلام وهي فلسفة إسلامية محضة، والثانية هي الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق الأرسطي" (الحاج صالح، 2007، ص6-7).

وبالتالي فإن نحو سيبويه لم يتأثر أبدا بعلم الكلام الذي لم يكن واضح الملامح في ذلك العصر، والذي يجزم به الحاج صالح أن تأثر النحو عند سيبويه كان مرتبطا بالمنطق الرياضي الخالص وليس بعلم الكلام ولا الفلسفة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1. مقبول: 2015، سيبويه معتزليا، حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي، ط1، بيروت، لبنان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
2. سيبويه عمرو بن عثمان، 1982، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة،
3. أبو الفتح ابن جني، (د ت)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط2، بيروت، دار الهدى للطباعة والنشر.
4. محمد الغزالي، 2008، المستصفى من علم الأصول، تحقيق: حمزة بن زهير حافظ، ج1، المدينة المنورة، شركة المدينة المنورة للطباعة.

المراجع:

1. إبراهيم أنيس، 1966، ، من أسرار اللغة، القاهرة، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية.
2. إبراهيم السامرائي، (د ت)، المدارس النحوية، ط1، أسطورة وواقع، عمان، دار الفكر.
3. إدريس مقبول، 2006، الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ط1، جدارا للكتاب العالمي، وعالم الكتب الحديث.
4. أمين الخولي، 2003، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب،(د ط)، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة.
5. زابينه شميتكه،، (د ت)، المرجع في تاريخ علم الكلام، ترجمة: أسامة شفيع السيد، ط1، بيروت، لبنان، مركز نماء للبحوث والدراسات.
6. فصيح مقران،2011، المدخل الجامع في أصول نظرية النحو العربي، ط1، منشورات زين، الجزائر، الوسام العربي.
7. عبد الرحمن الحاج صالح، 2007، النظرية الخليلية مبادؤها الأساسية، (د ط)، بوزريعة-الجزائر، منشورات مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية.
8. عادل العوا، 2000، المعتزلة والفكر الحر، ط1، دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.
9. محمود حسن الشافعي، 2001، المدخل إلى دراسة علم الكلام، ط2، باكستان، منشورات إدارة القرآن للعلوم الإسلامية.
10. محمد بن عبد الله البريدي، (د ت)، علم الكلام نشأته وموقف السلف منه، (د ط)، السعودية، منشورات جامعة الملك خالد.
11. مصطفى أحمد عبد العليم بخيت، 2012، أثر العقيدة وعلم الكلام في النحو العربي، ط1، دار البصائر، القاهرة.

المجلات:

1. عبد القادر المهيري، 1973، خواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة، العدد 10، حوليات الجامعة التونسية.
2. محمد خير الحلواني، 1980، بين منطق أرسطو والنحو العربي، مج 09، العدد 1، مجلة المواد.

الروابط:

1. أحمد البان: سيبويه معتزليا، 2021، حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي، موقع إسلام أون لاين.
2. أنس الأسعد: اعتزلوا سيبويه، د إدريس مقبول وميتافيزيقا الجر، الرابط :

http:www.mutalammes.com/post تاريخ التحديث: ديسمبر 2020.